

يرى بعضُ المُستشرقين أنَّ العِلْمَ العَرَبِيَّ تَقَيَّدَ بِالنَّقْلِ وَالتَّقْلِيدِ وَافْتَصَرَ عَمَلُ العُلَمَاءِ العَرَبِ عَلَى حِفْظِ أَقْوَالِ المُتَقَدِّمِينَ. إِنَّهُمْ كَانُوا يُجْلُونَ مَصَابِرَهُمُ الَّتِي مِنْ مَنَاهِلِهَا كَرَعُوا مَبَادِي العُلُومِ وَأَصُولَهَا، وَكَانُوا يُقَدِّرُونَ لِلعُلَمَاءِ مَا قَامُوا بِهِ مِنْ جُهدٍ لاسْتِقْرَاءِ مَا تَجَمَّعَ لَدَيْهِمْ فِي مَيْدَانِ المَعَارِفِ، وَيُنَوِّهُونَ بِمَا تَحَلُّوا بِهِ مِنْ رُوحِ عِلْمِيَّةٍ زَكِيَّةٍ نَزِيهَةٍ. وَلَكِنَّ عُلَمَاءَ العَرَبِ اعْتَبَرُوا هَذِهِ الخِصَالَ بِالذَّاتِ لَهُمْ أَسَاسًا، فَأَلْزَمُوا النَفْسَ بِاسْتِقْرَاءِ الكَائِنَاتِ وَتَعَقُّبِ أَحْوَالِهَا، وَالبَحْثِ عَمَّا يُلُوحُ بَيْنَهَا مِنَ الأُمُورِ المَطْرُودَةِ الَّتِي لَا تَخْتَلِفُ وَلَا تَتَغَيَّرُ. . . فَمَا ثَبَتَ لَدَيْهِمْ بِالخِبْرَةِ لَا الخَبَرَ 10 وَصَحَّ عِنْدَهُمُ بِالمُشَاهَدَةِ وَالنَّظَرِ اذْخُرُوهُ كَنْزًا سَرِيًّا . وَالمُشَاهَدَةُ الحِسِّيَّةُ فِي المَنْفَعَةِ وَالمَاهِيَّةِ. وَيَقُولُ ابنُ الهَيْثَمِ كَذَلِكَ: «الحق مطلوب لذاته، وكلُّ مطلوب لذاته فَلَيْسَ يَعْنِي طَالِبَهُ غَيْرَ وَجُودِهِ. فَطَالِبُ الحَقِّ لَيْسَ هُوَ النَّاطِرُ فِي كُتُبِ المُتَقَدِّمِينَ المُسْتَرْسَلِ مَعَ طَبْعِهِ فِي حُسْنِ الظَّنِّ بِهِمْ، بَلْ طَالِبُ الحَقِّ هُوَ اللّهُمَّ لِظَنِّهِ فِيهِمْ 15 المُتَوَقِّفُ فِيمَا يَفْهَمُهُ عَنْهُمْ التَّبَعُ الحُجَّةُ وَالبُرْهَانُ، لَا قَوْلَ القَائِلِ الَّذِي هُوَ إِنْسَانٌ المُخْصُوصُ فِي جِبَلْتِهِ بِضُرُوبِ الخَلَلِ وَالنَّقْصَانِ». . أَلَمْ يَكُنْ مَوْقِفُ العِلْمِ العَرَبِيِّ هُوَ مَوْقِفُ العَالَمِ الحَدِيثِ ذَاتُهُ مِنْذُ أَنْ جَعَلَ بِكُنْ» وَدِيكَارْتِ الشُّكِّ بَيْنَ قَدَمِي الحَقِيقَةِ؟ وَصَارَ السُّؤَالُ المُهِمُّ إِذْنًا يَتَعَلَّقُ بِمَا صَنَعَ عُلَمَاءُ العَرَبِ بِمَا اعْتَمَدُوا مِنْ أَصُولٍ وَمَصَادِرٍ، وَبِالكَيفِيَّةِ الَّتِي أَلْفُوا بَيْنَ